سندباديات السياب

د/ عيد عبد الرحمن قناوى

ان الشعر تجربة روحية عميقة تتصل بأعماق مكونات الأمة ، وتستخدم من اللغة أرهف أدواتها ، وأكثرها قدرة على الاشعاع بهذه المكونات ، ومن ثم فان الشعر العربى وليد الحضارة العريقة الجذور ،

---

(١) هو بدر شاكر السياب . شاعر من شعراء الفكرة والموضوع فى الأدب العراقى المعاصر . ولد عام ١٩٢٦م فى قرية « جيكور » فى أبى الخصيب جنوبى البصرة ، وأنهى دراسته الثانوية فى البصرة ، ثم دخل دار المعلمين العالية فى بغداد ، و قضى سنتين فى فرع الأدب العربى ثم انتقل الى اللغة الانجليزية فتخرج منه عام ١٩٤٨م .

اشتغل فى التدريس بضعة أشهر ، ثم فصل لأسباب سياسية فاتجه نحو العمل الحر .

صدر له : ديوان « أزهار ذابلة » عام ١٩٤٧م ، « أساطير » ١٩٥٠م و « حفار القبور » ١٩٥٢م ، و « المومس العمياء » ١٩٥٤م ، و « الأسلحة والأطفال » ١٩٥٤م .

تعد مؤلفاته : صورة عن حياته الفكرية المتطورة وجهده الدؤوب ، بدأها شاعرا رومنطيقيا خالصا فى « أزهار ذابلة » ثم رومنطيقيا رمزيا فى « أساطير » وملحمة « حفار القبور » ورمزيا واقعيا فى « الأسلحة والأطفال » وانتهى أخيرا الى الشعر الواقعى فى ما صدر له بعدئذ من آثار .

تأثر بأليوت ، وايدث سيتويل وغيرهما من شعراء الانجليز .. تعلم منهم التعبير بالصور ، وتداعى المعانى والتعبير عنها بطرق غير مألوفة ، ومال أخيرا الى ادخال عنصر الثقافة ، والاستعانة بالأساطير والتاريخ والتضمين والغرف من الأنثربولوجيا .

وأظهره ما يميزه عن غيره هذه الصلابة فى التعبير والدقة فى الألفاظ واللمحات الاقليمية المتصلة بجذور تربة بلاده .

توفى بالكويت فى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٦٤م من كتاب الشعر والشعراء فى العراق ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨م دراسة ومختارات بقلم أحمد أبو سعد .

والتى خضعت للتأثر بالمناخ الحضارى للمنطقة التى نمت فيها مجموعة مختلفة من الحضارات •• كحضارة بابل وآشور وفينيقيا وفلسطين ومصر القديمة واليونان — يجن الكثير من التجارب الانسانية لكل هذه الحضارات •• ويمتد بجذوره الى أعماقها •• ويشف ويومىء — على نحو رهيف وخفى الى أساطيرها •

وهذه النظرة الى الشعر تخرجه من اطار النظرة اللغوية الجامدة التى تراه مهارة فى الصياغة ، ولعبا بالألفاظ ، ومعجما للغة والعادات والتقاليد ••• فكل هذه يمسه الشعر بظاهره ، وتبقى أعماقه حافلة بجوهر التجربة الانسانية الخصبة التى تسرى فيها روح الكلمة السحر ، وروح الكلمة الحياة ، عندما كان الأول يعتقد أنه بالكلمة يستنزل المطر ، ويمحو اسم الميت بفقده لحياة •

ومن ثم فان العودة الى استخدام الأسطورة فى الشعر عودة حقيقية الى المنابع البكر للتجربة الانسانية ، ومحاولة التعبير عن الانسان بوسائل عذراء لم يمتهنها الاستعمال اليومى ، فتخفى الألفة ما تجنه من ايحاء(٢) •

ويجدر أن نشير الى أن استخدام الشاعر لهذا اللون الاسطورى، يعد لونا من الرمز •

وليس غريبا أن يستخدم الشاعر الرموز والأساطير فى شعره ، والعلاقة القديمة بينهما وبين الشعر ترشح لهذا الاستخدام وتدل عندئذ على بصيرة كافية بطبيعة الشعر والتعبير الشعرى •

ولكن التأمل فى طبيعة الرموز والأساطير التى يستخدمها الشعراء

---

(٢) الأسطورة فى الشعر العربى الحديث د• أنس داود ص ١١، ١٢ طبع دار الجيل للطباعة — الفجالة — القاهرة ١٩٧٥م •

المعاصرون وفى طريقة استخدامهم لها يدعو لها دعوة ملحة الى الاهتمام بهذه الظاهرة وتقويمها •

فالرمز الشعرى مرتبط كل الارتبـاط بالتجربة الشـعورية التى يعانيها الشاعر ، والتى تمنح الأشياء مغزى خاصا • وليس هنـاك شىء ما هو فى ذاته أهم من أى شىء آخر الا بالنسبة للنفس وهو فى بؤرة التجربة ، فعندئذ تتفاوت أهمية الأشياء وقيمتها • ذلك أن التجربة هى تمنح الأشياء أهمية خاصة •

وعند استخدام اللغة فى الشعر اسـتخداما رمزيا لا تكون هناك كلمة هى أصلح من غيرها لكى تكون رمزا ، اذ المعـول فى ذلك على استكشاف الشاعر للعلاقات الحية التى تربط الشىء بغيره من الأشياء• ومن هنا تبرز أمام الشاعر امكانية عظيمة الدلالة ، هى أنه من حقه دائما أن يستخدم أى موضوع أو موقف أو حادثة استخداما رمـزيا وان لم تكن قد استخدمت من قبل هذا الاستخدام • ونفس الامكانية المتاحة للشاعر ازاء الشخصيات ذات الطابع الأسطورى،فهو يستخدمها بنفس المنهج الذى يستخدم به الرمز القديم ، وهو كذلك يضفى أحيانا على بعض الشخوص المعاصرة التى لم تدخل من قبل عالم الأسطورة طابعا أسطوريا »(٣) •

ويعد استغلال الأسطورة فى الشعر العـربى الحديث من أجـرأ المواقف الثورية فيه ، وأبعدها آثارا حتى اليوم ، لأن ذلك استعادة للرموز الوثنية ، واسـتخدام لها فى التعبير عن أوضـاع الانسـان

---

(٣) انظر : الشعر العربى المعاصر د• عز الدين اسماعيل ص ١٩٨، ١٩٩ وملامح وحدة القصـيدة فى الشـعر العربى بين القديم والحـديث د• سامى منير ص ٥٩٢ ط • أولى ١٩٧٩م • الهيئة المصرية العامة للكتاب – فرع الاسكندرية •

العربى فى هذا العصر ، وهكذا ارتفعت الأسطورة الى أعلى مقام،حتى ان التاريخ قد حول الى لون من الاسطورة لتتم للاسطورة سيطرتها الكاملة • لماذا تم كل ذلك ؟

ثمة أسباب كثيرة ربما كان فى أولها — وان لم يكن أقواها — التقليد للشعر الغربى الذى اتخذ الأسطورة — منذ القدم — سداه ولحمته — ولكن منذ دراسات « فرويد » و « يونج » لدورها فى اللاوعى الانسانى ، انهارت الحواجز التى كانت تقوم دون تقبلها فى الشعر العربى الحديث •

أضيف الى ذلك أن للاسطورة جاذبية خاصة ، لأنها تصل بين الإنسان والطبيعة ، وحركة الفصول ، وتناوب الخصب والجدب،وبذلك تكفل نوعا من الشعور بالاستمرار ، كما تعين على قصور واضح لحركة التوطر فى الحياة الانسانية ، وهى من ناحية فنية تسعف الشاعر على الربط بين أحلام العقل الباطن ونشاط العقل الظاهر ، والربط بين الماضى والحاضر ، والتوحيد بين التجربة الذاتية والتجربة الجماعية ، وتنقذ القصيدة من الغنائية المحض ، وتفتح آفاقها لقبول ألوان عميقة من القوى المتصارعة ، والتنويع فى أشكال التركيب والبناء •

لهذه الأسباب ولغيرها ذهب الشاعر الحديث يبحث عن الأسطورة، ويعتمدها ان وجدها ، لا يعنيه فى ذلك أن تكون بابلية « عشتاروت تموز » أو مصرية « أوزوريس » أو حيثية « أنيس » أو فينيقية « أدونيس فينسق » أو يونانية « أورفيوس بروميثيوس • عولس ، أوديس ، ايكاد ، سيزيف ، أوديب ••• الخ » أو مسيحية «المسيح» لعازر يوحنا المعمدان » بل انه ذهب الى بعض الحكايات الجاهلية ورموزها الوثنية «زرقاء اليمامة» « اللات » وعامل القصص الاسلامية على المستوى نفسه مثل قصة « الخضر » وحديث « الامراء » و « المهدى المنتظر » أو صاحب الزمان ، واتخذ من كل ذلك رموزا فى

شعره ، تقوى أو تضعف ، بحسب الحال ، وبحسب قدرته الشعرية، وحين اضطر الى مزيد من التنويع ذهب الى خلق الأقنعة والمرايا والاستعانة بالأدب الشعبى .

ومن الانصاف أن يقال ان الشعراء يختلفون فى مقدار شغفهم بالأسطورة فبعضهم يكثر منها مثل السياب ، وبعضهم قليل الالتفات اليها مثل محمود درويش ، وأن شعراء العراق ولبنان — على وجه العموم — لا يجدون غضاضة فى تطلبها من أى مصدر ، بينما شعراء مصر — مثلا — يتحفظون تجاه بعضها ويقبلون على بعضها الآخر ، ومهما يكن من شىء فان الشاعر المتميز ، حين يشعر أنه فى غير حاجة كبيرة الى الأسطورة — يخلق أساطيره ورموزه الخاصة به(٤) .

وحينما نتجه الى « السياب » نجده قد نجح فى استخدام الأسطورة استخداما عاما وكاملا ، فكان يلتقط أسماء بعض الآلهة والأحداث كلما رغب فى ذلك ، يساعده خياله على ايجاد المكان الملائم لها ، والأساطير منها ما هو شرقى ، ومنها ما هو عربى . وأكثرها يونانى . وغربى . ف « عشتار » آلهة الخصب والحب عند البابليين، وهى حبيبة « تموز » .

وهبنة عشتار الأزاهر والثمار ، كأنه روحى فى تربة الظلماء حبة حنطة وصدال ماء .

والكوكب يرمز به الى الذى يتنبأ به المجوس أن المخلص(٥) قد ولد :

---

(٤) اتجاهات الشعر العربى المعاصر د. احسان عباس ص ١٦٥،١٦٦ سلسلة عالم المعرفة فبراير ١٩٧٨م — الكويت .

(٥) المخلص هو السيد المسيح عليه السلام لأنه فى عرفهم خلص البشرية من خطيئة آدم حين ضحى بنفسه وترك اليهود يصلبونه . وتلك خرافة ما بعدها خرافة .

أبحث فى الآفـــاق عن كوكب

عن تولد للروح تحت السماء

ألى صـــخر :

وأفضى الى العرش الســـديمى معدن
بما امتاح من أحداق «ميدوز» لا مع

والنعقاء خرافة العرب منذ الجاهلية :

أعنقاء من صـــحراء نجد تقحمت
بها مغرب الشمس البعيد الزعازع

و « سربروس » وهو الكلب الذى يحرس مملـــكة الموت ، حيث يقوم عرش « برسفون » آلهة الربيع بعد أن اختطفها اله الموت•وقد صوره « دانتى » فى « الكوميديا الآلهيـــة » حارســـا ومعذبا للأرواح الخاطئة • و « ندب الموتى » فى الهند من قبل النساء معروف :

ولنـــــدب موتى غير موتاهن　　فى الهند النســـــاء

قد أمعن الباكى عـــلى مضض　　فعـــاد الى البكاء !

و « السندباد » رمز استفاد منه فى أسفاره وعودته ، وهو مهما غاب فانه يعود فى خاتمة المطاف • وأهل السندباد هم زوجته المتحرقة على عودة زوجها ، وهو فى نظرها ســـيعود حتمـــا وأولاده المنتظرون أوبة سفينة أبيهم وفيها « السندباد » •

وبالاضافة الى ذلك فقد التقط بعض رموزه من الطبيعة واستخدمها برموز عميقة دقيقة فى « المطر » رمز للخير والخطيب والحياة وزوال الظلم ، كما هو رمز لآمال يرجو أن تحقق فى العراق•وما هذه لآمال غير آمال الشعب :

أقض يا مطر
مضاجع العظام والثلوج والهباء
مضـــاجع الحجر
وأنبت البذور ، ولفتح الزهر
وأحرق البيادر العقيم بالبروق
وفجر العروق
وأثقل المطـــر
وجئت يا مطر

و « البرق والرعد » يرمزان الى الخصب والى ثورة الشعب على الظلم ، والى حركات التحرر فى بعض بلدان الوطن العربى :

وأبرقت الســـماء كأن زنبقة من النـــار
تفتح فوق « بابل » نفسها وأضاء وادينا

« والسحاب » : صدى حركات التحرر المنبعث من البرق :

وحول قرابها الظمآن • من عمد وأســـوار
سحاب •• كان لولا هذه الأســـوار رواها

والربيع رمز للثورة التى يريد تحقيقهـــا ، ففيها الخير ويقظـــة الشعب ، وقد لا يرى فى « الربيع » خير لأن الشعب لم يثر،فقال :

يا أيها الربيع
يا أيها الربيع ما الذى دهاك ؟
جئت بلا مطر
جئت بلا زهر
جئت بلا ثمر

وتناول فى أساطيره الكثير من الصور الانسانية ، والاجتماعية كما فى « المومى العمياء » و « حفار القبور » :

ثم نمت الرموز التى استقاها من التاريخ لأنه على معرفة تامة بدقائق التاريخ ، « فكولمبس » يرمز الى المخاطرة والكشف عن غياهب الحيـاة :

كأنه شراع « كولمبس » فى العباب

كأنه القـدر

و « بابل » رمز العـراق ، انه لا يستطيع نطق اسم العـراق صراحة ولا بالحكم الجائر جهارا وهو يئن من الأذى الذى يحل به :

كأن بابل القديمة المسورة

تعود من جـديد

قبابها الطوال من حديد

يدق فيها جرس كأنه مقبـرة

تئن فيه ، والسماء ساح مجزرة

جنانها المعلقات زرعها الرؤوس

تجـزها قواطع الفـؤوس

وتنقـر الغربان من عيـونها

زد على ذلك أن السياب غاص فى الكتب السماوية عن رموز تعبر له عن أهدافه ، فها هو ذا فى قصيدته : « ضلال الحب » يروى لنا قصة « حواء وتفاحة آدم » ـ عليه السلام ـ وكيف أن الأفعى أغـوته :

أروى لنا نبأ الطـريد فأنت راوية الزمـان
أغوته (حـواء) فمد يديه نحو الأفعـوان
ثمـر يحـرم الآله عليهمـا ويحـللان
ذاقا فـكانا ظـالمين فكيف يجـزى الظالمـان
وبـدا الموارى منهما فاذا هنـالك سـوأتان
وعليهـا طفقا من الورق المهـدل يخصـفان

وقد أكثر من استخدام رمز « المسيح عليه السلام » فهو الانسان والضعيف والمصلوب ، والماشى على الماء .

من عارها المخبـوء بالزهر ،
من موتها السارى على النهر

« وقابيل وهابيل » رمز الظلم ، وقتل الأخ لأخيه ، ورمز لتشريد الشعب الفلسطينى :

ألسائرين الى وراء
كى يدفنوا « هابيل » وهو على الصليب وركام طين ؟
« قابيل أين أخوك ؟ أين أخوك ؟ »
جمعت السماء
آمادها لتصيح ، كورت النجوم الى نداء :
« قابيل أين أخوك ؟ »
« يرقد فى خيام اللاجئين »

و « أيوب » رمز الصبر والتحمل على العذاب .

مما سبق يتضح لنا كثرة وتشعب الرموز التى استقاها السياب مما حوله أو جمعها من الكتب أو ابتدعها من نفسه .

توظيف الأسطورة .

لقد استطاع الشعراء المحدثون أن يجدوا فى الأساطير رمـوزا للفكر وللشعور ، واستطاعوا بالاضافة الى ذلك أن يكتشفوا فيهـا « النموذج الأسطورى » الذى يحمل عبء التعبـير عن خصيصة من خصائص المجتمع العربى ككل يتحرك داخل تطور حضارى خاص،له قضاياه وعوائقه وتطلعاته » وكان لكل منهم وجهة نظره فى اللجوء الى استخدام الأسطورة ، وفى الطريقة الصحيحة لهذا الاستخدام .

فصـلاح عبد الصبور ــ مثلا ــ يرى أن الدافع الى اسـتعمال الأسطورة فى الشعر ليس مجرد معرفتها ، ولكنه محاولة اعطاء القصيدة عمقا أكثر من عمقها الظاهر ؟ ونقل التجربة من مسـتواها الشخصى الذاتى الى مستوى انسانى جوهرى(١) .

وهناك أسلوب آخر أثره صلاح عبد الصبور وهو اخفاء المادة التاريخية بشكل عام تحت السطح الظاهرى للقصيدة(٢) .

أى أن يكون هناك فى القصيدة نظير تاريخى أو أسطورى يلوح تحت نقاب شفاف من الاشـارات والمواقف ، فتتحرك القصـيدة فى مستويين ــ فى وقت واحد ــ مستوى التجـربة الشخصية ومسـتوى التجربة التراثية .

أما شاعرنا السياب فقد فسر اقبال الشاعر الحديث على الأسطورة بانعدام القيم الشعرية فى حياتنا الحاضرة ، لغلبة المادة على الروح،

---

(١) حياتى فى الشعر ص ١٥٠ .

(٢) حياتى فى الشعر ص ١٠١ ، ١٠٢ .

ولهذا يلجأ الشاعر الى عالم آخر يحس فيه بالارتياح ليبنى عوالم يتحدى بها منطق الحديد والذهب(٣) .

وليتحدث عبد الوهاب البياتى عن معاناته فى الاهتداء الى استخدام الأقنعة التاريخية، ووجهة نظره فى الشخصية الاسطورية التى تصلح لاتخاذها قناعا : « لقد حاولت أن أوفق بين ما يموت وما لا يموت ، وبين المتناهى واللامتناهى بين الحاضر وتجاوز الحاضر . وتطلب هذا من معاناة طويلة فى البحث عن الأقنعة الفنية، ولقد وجدت هذه الأقنعة فى التاريخ والرموز والأسطورة(٤) .

والحقيقة ان امكانية أية أسطورة لا يمكن أن تستغل الا اذا أتيح لها الأديب الذى يفهم مغزاها لتعليق « حالقة » بها .

والسياب بثقافاته الموزعة وبمعرفته الانجليزية تأثر بالمذهب الفرنسى عندما قرأ لبودلير ورامبو وريلكه . وقد استغل الرمز الى أبعد حدوده ؟ وما ذلك الا لميله الى شرح قضاياه وخيالاته بعيدا عن الفهم العادى ، وليحدث فى قصائده خصبا فى المعنى وجدة فى التعبير. ويرجع السبب الى استعانته بالرمز للتعبير عن أهدافه القومية والوطنية ومواقفه الاجتماعية نحو الانسان والطفل والمرأة فرارا من المخبرين وتخوفا من بطش الباطشين ، أو لأسباب فنية بحتة يريد بها أن يبرز ثقافته(٥) .

ولهذا يصلح أن يكون السياب نموذجا للشاعر الذى يطلب الرمز

---

(٣) بدر شاكر السياب ـ دراسة فى حياته وشعره ـ د. احسان عباس ص ٢٨٦ .

(٤) تجربتى الشعرية . عبد الوهاب البياتى ص ٣٤ .

(٥) بدر شاكر السياب والمذاهب الشعرية المعاصرة د. محمد التونجى ص ١٤٣ ، ١٤٤ . منشورات دار الأنوار ـ بيروت ـ ط أولى سنة ١٩٦٨

فى قلق من يبحث عن مهدىء لأعصابه المتوفزة ، فهو يتصده حيثما وجده • وبهذا يكون قد فتح المجال بعده لمن شاء أن يستخدم الرمز، وان تجاوزه بعضهم فى القدرة على الاختيار وفى طريقة الاستخدام • على أن السياب نفسه قد تطور كثيرا فى كيفية استغلال الأساطير والرموز فهو من الشعراء الذين تعاملوا مع أعماق اللغة وأجهدوها وأوسعوها توليدا للألفاظ وابتكارا للصور ، وهو وان بدت عليه الصبغة السياسية شاعرا مرهف الحس ، بلغ من حد ذكائه الفنى أن جعل الأساطير خدمة فى موضوعات شعره ؟ فقد استخدم الأسطورة استخداما يدل على البراعة فى مزجها بالواقع الذى عاصره ، والواقع الآخر الذى حلم به •

واستخدام الأسطورة يتضح فى شقين :

الأول : وهو الاستخدام اللفظى •

والثانى : وهوالاستخدام الأصلى •

فالاستخدام اللفظى هو استعمال الشاعر للألفاظ والكلمات التى تشكل جوا أسطوريا يعتمد فيه الشاعر على ادراكه الغامض لدلالات الألفاظ أى العودة باللفظ الى الأجواء الخيالية الأولى • أو الاستعمال الأولى للكلمات فى جو يجعله الشاعر مشابها للعصور الأولى حيث تغلب « الطبيعة » على دلالة كل فعل •• وهذا الاستخدام كثير الذيوع فى أشعار المتقدمين والمتأخرين فى الشعر العربى المعاصر •

واذا كان من شاعر قد نبغ فى رسم هذا الجو الأسطورى فى قصائده فاننا نقول ــ وللحق ــ انه السياب ويتضح ذلك من قصائده المختلفة •• فالسياب برع فى استخدام هذا « الاعداد » الاسطورى فى قصائده وغاليا ما يدأها به •

ونأخذ بعض النماذج توضح مدى قدرة الشاعر على استخدامه اللفظى للأساطير • فمثلا يبدأ قصيدته « المعبد الغريق » :

خيول الريح تصـــهل
والمرافىء يلمس الغرب
صواريها بشمس من دم
ونوافذ الحانة
تراقص من وراء خصاصها سرج

فهو هنا يبدأ القصيدة ويهيىء لها بالسيطرة الخيالية الأسطورية ليفتح للقارىء أحناءها ويتصفح مدلولاتها •• اذ أن الميل الى العوالم الأسطورية ميل متأصل فى الحدس الانسانى أو هى فطرة وغريزة •• والشاعر استطاع « أسر » قارئه بافتتاحه قصيدته بمثل ذلك الشكل الأسطورى •

ومثل ذلك فى قصيدته « الباب تقرعه الرياح » :

الباب ما قرعته غير الريح فى الليل العميق
الباب ما قرعته كفك
أين كفك والطريق
ناء ؟ بحار مبينا ، مدن ، صحارى من ظلام
الريح تحمل لى صداى القبلات منها كالحريق

ففى هذه البدايات أو الافتتاحات يقف بنا الشاعر على باب الدهشة الموصد والذى يفتح رتاجه هذا الاستعمال الأسطورى للفظ •• ويظهر هذا الاستعمال فى ألفاظ : الريح ، الخيـــول ، البحار ، الصـــحارى ، الصدى • فهذه الألفاظ تشكل باستخدامها الجيد تلك الأجواء الخاصة

بالروافد الأولى للحياة منذ القرون السحيقة حين كانت الطبيعة تحيط بالانسان وتخالطه،وحين كان الانسان «طبيعيا» فى مأكله ومشربه قبل أن يتطور الى المجتمعات والحدود والقوانين ، فالانسان بصورة تشده هذه العوالم والتى تراوده حلما ورؤية .. فهو فى أعماقه « طبعى » وغريزته تميل الى طبيعتها .. فالاستخدام الأسطورى للفظ هو الذى يتيح للانسان فرصة الهروب بين دفاته من عالمه الواقعى بكل رتابته وروتينيته(٦) .

ونلحظ أن قصيدته « أنشودة المطر » جاءت بهذا المنوال :

عيناك غابتـــا نخيل ساعة الســـحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم

هذا هو الخط الأول فى فهم الحياة ، انه التجدد ، الولادة ، الخصب، وهو الضياء والميلاد .

نقيض هذا الفهم ينبع من حزن الشاعر الدفين ، انه اســـتظهار لمعنى الموت داخل اطار الحياة ، بل انه الامتداد الطبيعى الملمـــوس لمفهوم الحياة ، وهو الموت :

تثاءب المساء والغيوم ما تزال
تسح ما تسح من دموعها الثقال
كأن طفلا بات يهذى قبل أن ينام
بأن أمه التى أفـــاق منذ عام

---

(٦) انظر : قراءات فى الشعر المعاصر ـ ملامح نقدية ـ أحمد مرتضى عنده . ص ٦٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م .

فلم يجدها ، ثم حين لج فى السؤال
قالوا له : بعد غد تعود
لابد أن تعـــود

وهنا نجد علاقة ثنائية فى استخدامه الأسطورى الذى بنيت عليه « أنشودة المطر » انه غربة الشاعر ذاته استوحاها من قسوة الحوادث التاريخية التى تعاقبت على الخليج العربى وطن الشاعر • الخليج رمز تتزاوج فيه وحدة الحياة والموات ، فهو يهب الخير والعطاء كما يبعث الموت والفناء :

يا خليج يا خليج يا خليج
يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى
فيرجع الصدى
كأنه النشيج
يا خليـــج
يا واهب المحار والردى

هكذا يترك السياب رموزه تعبر عن ذاته ويسقط عليها مأساته • فالمأساة فى الخليج فى بعثه الحياة والموت • هى مأساة الشاعر الذى يعانى هذين النقيضين • انه ــ رحمه الله ــ كان دائب البحث عن الحياة داخل أسوار الموت :

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف
والموت والميلا والظلام والضـــياء
فستفيق مـــلء روحى رعشة البكاء
ونشـــوة وحشية تعانق الســـماء

فهنا تجـد موضوع الرمز بذات الشـاعر فى سياق فنى يتـرك للقصيدة غنائيتها الذاتية وفكرها الجماعى • ويظل المطر هو النشيد الموحد لكافـة المتناقضات • وهو الصـوت المسموع داخـل الحركة والسكون ، وداخل الحياة والموت • ومع هذا المطر يتحقق الخصب ، ويتحقق الخلاص الانسانى •

فى كل قطـــرة مـن المطـــر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر
وكل دمعة من الجيـاع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهى ابتسام فى انتظار مبسم جديد(٧)

ولعل من أسباب براعة السياب فى شعره قدرته على الاستخدام الأسـطورى للفظ بحيث يحبب شـعره للقارىء ويصلهما معا بعرى لا تنفصم ثم « يفرض » بعد ذلك ما يريد افضاءه من دلالات مختلفة وان كانت بصورة عامة دلالات سياسية لأن فلكى شعر السياب كانا الذاتية والسياسية •

ونلحظ هذا اللون فى قصيدته التى يقول فيها :

عيونكم الحجار كأنها لبنـــات أسوار
بأيدينا ، بما لا تفعل الأيدى ، بنيناها
عذارانا حزانى ذاهلات حول عشـتار
يغيض الماء شيئا بعد شىء من محيـاها

---

(٧) ديوان بدر شاكر السياب ـ أنشودة المطر ـ ص ٤٧٤ ـ ٤٨١ •

وغصـــنا بعد غصن تذبل الكرمـــة
بطيء موتنا المنسل بين النور والظامـــة
له الويلات من أسد نكابد شدقه الأود
أنا البرق فى عينيه أم من شـــعلة المعبد

ففى الشطر الرابع نجد صورة للأسد وهى تقترن فى هذا الجزء بصورة الموت المنسل بين النور والظلمة ، « فدموز » — وهو اله من آلهة بابل يقابل « أوزيريس » مصر القديمة — يموت كل عام ويدخل من مملكة النور الى مملكة الظلام ، والأسد هنا هو السور الذى لايمكن اختراقه ، ومن ثمة لا يحقق هذا الرجاء الوحيـد ، وللأسد دلالـة أخرى ليست « ثيولوجية » انما هى باطنية خاصة بالشاعر ، وكامنة فى لاوعيه ، ففى أكثر المعابد البابلية ، توجد صورة أو تمثال للاسد المجنح الذى يرمز الى البطش ، والحكمة ويذكر بالألوهية والقدرية ، ويرتبط بالملك السومرى « جلجا مش » والذى ذهب يفتش عن نبات الخلود فى الأسطورة السومرية الشهيرة ، ولا يجد الباحث صورة مثل هذه فى أى بلد عربى الا أن تكون صورة عراقية متميزة(٧) .

أما الأمر الثانى : الاستخدام الأصلى للأسطورة : ويقصد به استعمال مدلولات الأسطورة ومزجها كعامل مساعد أو رئيسى حسب مقتضيات الحدث الذى يعالجه الشاعر ويظهر من خلاله سـماته ... والاســتخدام الأصــلى للأســطورة يبرز بصورة مكثفة فى كثيرا من قصائده وفى متدمتها قصيدته الضخمة « المومى العمياء » فهى من أبرز القصائد التى ترصد الانحدار البشــع فى مناحى الحياة الســياسية والاقتصادية والاجتماعية للأمة العربية .

---

(٧) راجع : ملامح وحدة القصيدة فى الشعر العربى — بين القديم والحديث ص ٥٥٧ وما بعدها د. سامى منير .

انها ملحمة من ملاحم الشعر الحديث الذى يميزها النسج الدرامى المجسد لجوهر المأساة • تحدثنا القصيدة عن فتاة اسمها « سليمة » ابنة فلاح عراقى قتل على يد ، بسبب تهمة السرقة ، فعاشت هذه الفتاة شريدة طـريدة ما لبثت أن دفعت شرفها الذى داسته أقـدام الغزاة الأجانب ثمنا لهذا الضياع ، اذ اتخذت البغاء رزقا مدة عشرين عاما ، هرمت بعدها وأصابها العمى ولم تعد تلفت أنظار الرجال بسبب عاهتها • ومن هذه القصيدة قوله :

الليـــل يطبق مرة أخرى فتشربه المدينـة
والعابرون • الى القرارة •• مثل أغنية حزينة
وتفتحت كأزاهر الدفلى مصابيح الطـــريق
كعيون « ميدوزا » تحجر كل قلب بالضغينة
وكأنها نذر تبشر أهل « بابل » بالحـــريق
من هؤلاء العابرون ؟
أحفـاد أوديب ، الغرير ووارثوه المبصرون
« جوكست »(٨) أرملة « كامس » وباب طيبة مايزال
يلقى أبو الهول « الرهيب عليه » من رعب ظلال
والموت يلهث فى سؤال
باق كما كان السؤال ، ومات معناه القديم

---

(٨) تزوج أوديب أمه « جوكست » وهو لا يدرى بأنها أمه • وطيبة هى المدينة التى دخلها بعد أن قتل أباه ملك طيبة ، فتزوج أمه ، ـ زوج الملك القتيل ـ وكان « أبو الهول » يحرس مدخل المدينة ويلقى على كل غريب يدخلها سؤالا : « ما الكائن الذى يمشى على أربع فى الفجر واثنتين فى الظهيرة ، وثلاث فى المساء » وقد حل أوديب هذا اللغز وكان الجواب : « الانسـان » •

من طول ما اهتـــرأ الجواب على الشـــفاة
وما الجواب ؟
مسخته آلهـــــة المدينة والنضار فمـــا بيين
« من يطرق الباب ؟ » افتحوها ـــ « ومن هناك ؟ »
وما الجواب ؟
« أنا » قال بعض العابرين :
(ما ظل يحلم ، منذ كان به ويزرع فى الصحارى
زبد الشواطىء والمحارا
مترقباً ميلاد « أفروديت »(٩) ليلا أو نهـــارا)
والمومس العجفاء ولا « هيلين »(١٠) والظماء اللعين
ـــ (ستظل مادامت سهام التبر تصغر فى الهواء
تعدو ويتبعها « أبوللو »(١١) من جديد كالقضاء)
« « يأجوج » يغرز فيه ، من حنق أظافره الطويلة
وبعض جند له الأصم ، وكف « مأجوج(١٢) الثقيلة»

ومع هذا الازدحام الأسطورى نلمس فى بعضه توفيق الشاعر فى اختيار الأسطورة لفظا وموضوعا ونلمس فى الآخر وقوع الشاعر فى مزلق الابتذال الأســـطورى حيث ازدحم هذا الجزء ـــ بلا ضرورة

---

(٩) أفروديت الهة الحب عند الاغريق .
(١٠) هيلين أو هيـــلانة الزوجة التى اختطفهـــا الطرواديون وقامت بسببها الحرب بين اليونان وطروادة كما تقول « الياذة هوميروس » .
(١١) أبو للو : انه الشعر عند الاغريق .
(١٢) يأجوج ومأجوج ورد ذكرهم فى القـــرآن الـــكريم على أنهم مفســـدون .

فنية فى الغالب ــ بأسماء ميدوزا ، وبابيل وبابل وأوديب وجوكست ، وهيلين ، وأبوللو ، مع أن فى بساطة الأجواء التى تجولت فيها القصيدة ما يوحى باللجوء الى وسائل فنية أبسط من هذه الاشارات الميثولوجية التى تعثر على الكثيرين والمحك الذى يبين قيمة الاشارة الميثولوجية بحق فى الفن ، هو مدى قدرتها على اثراء السياق الفنى ، واستدعائه لها فاذا ما كان العمل الفنى فى غير حاجة اليها ، أو أن التعبير بالصورة البيانية قد يغنى عنها ، أصبحت شيئا مجتلبا وضارا بوحدة العمل الفنى(١٣) •

ومع بعض الهنات الا أنها لا تقلل من قيمته الفنية فقد كان على وعى بالطريقة الصحيحة لاستخدام الأسطورة فى التعبير عن مضمونه العصرى ، وما قد يحتاجه ذلك من تحطيم لهيكلها المتوارث ، والتغيير بالحذف أو الاضافة أو الاستبدال ــ فى بعض مكوناتها • مع الالتزام بالاطار العام ، أو المغزى الكلى ، أو ما يظل وشيجة اتصال بالمادة الموروثة على نحو ما فعله « أندريه جيد » و « توفيق الحكيم » و « باكثير » فى أسطورة « أوديب » •

وهكذا فعل السياب فى بعض تعبيره بأسطورة « تموز » فهى ــ فى التراث ــ تعبير يقينى عن عودة الخصب ، ولكن السياب متردد فى الايمان بالبعث العربى ــ فى بعض مراحله ، شاك فى القدرة على تغلب تموز المعاصر فى نقض أكفان الموت ، والانتصار على كل عوامل الافناء الداخلى والخارجى •• فكان أن تحرك السياب ــ داخل

---

(١٣) قراءات فى الشعر المعاصر ــ ملامح نقدية ص ٦٧ ، الأسطورة فى الشعر العربى الحديث ص ٢٨٤ وانظر : دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر د٠ عز الدين منصور ص ١١٥ طبع مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ط ٠ أولى سنة ١٩٨٥م ٠

الأسطورة ــ بما يتيح له أن يعبر عن هذا المضمون الجديد :

ناب الخنزير يشق يدى
ويغوص لظـاه الى كبـدى
ودمى يتـــدفق ، ينســاب
لم يعد شقائق أو قمحـــا
لكن ملحـا
« عشتار » وتخفق أثواب
وترف حيالى أعشـاب
من فعل يخفق كالبرق
كالبرق الخلب ينساب
لو يومض فى عـرقى
نور فيضىء لى الدنيا
لو نهض ، لو أحيـا
لو أسقى ، آه لو أسقى
لو أن عروقى أعناب
وتقبل ثغرى عشـتار
فكأن على فمها ظلمـة
تتثال عـــلى وتنطبق
فيموت بعينى الآلق (١٤)

فيتحول دم تموز الجديد الى ملح غير صالح للانبات ، وصـياغة

---

(١٤) أنشودة المطر ــ شموز جيكور ــ ص ٩٩

الخصب يفرض القحط والجدب على الحياة ، وتخفق أثواب عشتار ، وترف الأعشاب واعدة بالخصب ، ولكن ذلك فى الخيال والحلم . وللامعان فى الاستحالة جعل ذلك الخيال باخلب كالبرق ، جاءت بعده أمنية صدرها « بلو » التى عند النحويين هى حرف امتناع لامتناع ، وتكررت « لو » فالحاحه عليها فى مقطوعتين متتاليتين ينبىء عن مدى احساسه باليأس مع لهفته اللجوج على أمل يراوده ولكنه مراوغ يومض . ولتأكيد اليأس خلط بين « تموز » وامرأة لوط التى مسخت الى تمثال من الملح حينما عصت « لوطا » ــ عليه السلام ــ لكى يفيد ألا أمل فى عودة الخصب مرة أخرى .

ثم يختفى وهو بين ذلك موزع الفكر والوجدان يتمنى أن يضىء فى عروقه نور يضىء له الدنيا ليعرف طريق الصواب الى الهدف لينهض ويحيا ، يشرب ماء الحياة لتصبح عودته أعتاب يمرق منها الداخل الى أعماق الأمل والحلم والهدف ، انه ليس السياب الذى يتحدث هنا وانما الشعب العربى كله الذى لو اكتشف طريقه وبذل دمه فى سبيل الوصول الى هدفه ، لتحقق له ما يريد ، وعاش الحياة كما يعيشها غيره من الشعوب الراقية ، ولكن الشعب العربى غير مستطيع شيئا من ذلك « فعشتار » آلهة الخصب والنماء على فمها ظلمة ، فهى لا ترى وهم أيضا لا يرونها . ومن تتثال القبلة تسيل من على الشفاة وتضيع فيموت الألق وتغنى الحياة وهذا ما أراده شاعرنا المبدع .

فكأن على فمها ظلمة

تتثال على ، وتنطبق

ان عطاء الشاعر ــ المتحدث بتموز والمسيح لم يستطع أن ينير

سبيل المواطنين ــ لم يستطع أن يخصب التربة ، لقد ضاع قربانه سدى :

هيهات أينبثق النـــور
ودمائى تظلم فى الوادى
أيفسق فيهـا عصـفور
ولسـانى كومة أعـواد
لا شىء ســوى العدم
والموت هو الموت الباقى

وقد وصل الدكتور احسان عباس من ذلك الى أن السـياب كان يؤمن بالبعث حين يحس بالتفاؤل ، وأنه فى هذه القصيدة ينكر البعث كله ، لأنه اختار العدم ، الراحة الأبدية لنفسه ولجيكور ، التى كانت ترمز الى كل ما يحبه على الأرض(١٥) .

ولئن كان هذا صحيحا .. فاننا نضيف اليه : أن رصيد الشاعر حركته النفسية ، وانتقالها من التفاؤل الى اليأس ، ومن اليقين الى الريبة ، يثرى شعره ، فضلا عن رنة الصدق التى تصاحبه مقنعة به ، وأن الايمان بالبعث العربى كان الطابع الغالب على شـعر السياب .. وما قد يشوبه من ريبة ويأس ــ أحيانا ــ ليس الا صورة أخرى من التلهف على البعث ، والاحساس بتأخر مقدمة ، على نحو ما نرى لدى الشاعر نسيب عريضة فى قصيدته « النهاية » التى يقول فيها :

كفنوه ، وادفنوه ، اسكنوه
هــوة اللحــد العميق

---

(١٥) بدر شاكر السياب ــ دراسة فى حياته وشعره ص ٣٢٥ .

واذهبـــوا لا تنـــدبوه
فهو شعب ميت ليس يفيق

فهى على ما تفيض به من ذم لتواكل الشعب العربى ، وتعنيف شديد على استكانته ، تشف عن حفز للهمم ، واثارة لمشاعر النقمة .

ولقد كان ثمة لدى السياب ــ فى قصيدته السابقة ــ رغبة مغالبة فى أن يتجاوز هذا الشك الذى يصبغ اللوحة بالسواد » وأن ينفتح على « جيكور » ــ قرية الشاعر ، ورمز العراق حينا ، والوطن العربى حينا آخر فى شعره ، كما أنها رمز البـــراءة والطهر فى كل حين ــ وقد تماوجت بالنور والخضرة :

جيكور ... ستولد جيكـــور
النور ســـيورق والثـــور
جيكون ستولد من جرحى
من غصـــة موتى ، من نارى
سيفيض البيدر بالقمـــح
والجـــرن سيضحك للصبح
والقـــــرية دارا عـــن دار
تتمـــاوج أنغـــاما حـــلوة

وقد حاول السياب أن يتجنب ما يصيب الأسطورة من جمـــود بتطويعها الى تجاربه المختلفة ، والاستعانة بمصادر أسطورية أخرى ليخصب رمزيتها وينوع فى دلالتها .. فعبر بها عن رغبته فى الثورة ، كما عبر عن رمييته فيها ، كما عبر بها عن تناقضه معها عندما استحالت الى مد فوضوى فى العراق .

هكذا تتضافر مصادر شتى للأساطير على صنع هذا الكيان الكلى الموحد فى فن السياب ، وحيث كان مجـال لتواصل هذه الرمـوز ، كالتناظر بين (تموز ــ عشتار (و) أوزيريس ــ ايزيس) وحيث كان كل عنصر أداة ضرورية فى اثراء العمل الفنى ، كان هذا المـزج بين الرموز ــ مع اختلاف مصادرها ــ مزجا موفقا ، يعمق العطـاء الفنى فى نفس المتلقى •

وقد كانت الأسطورة مصدر خصب لفن الشاعر •• لقد أعطتـه وأعطاها أثمن نتاجه الفنى •

وقد كانت فيما يبدو تستوعب تطلعاته الذاتية ، وآماله القومية معا فى أن تبتسـم له الحيـاة عن غد رافه ، وتقدير لفنه وعبقريته ، فى أن تشرق شمس الحرية على وطنه فتغمره بالعدالة وترفع عنـه نير الاستغلال •

السياب والسندباد

السـندباد شخصية عرفها التراث العـربى فى حكاياته الأدبيـة الشـعبية •

و « السندباد » زعموا أنه تاجر يجوب بسفينته البلدان بحثا عن الطرائف ، ويتعرض فى رحلاته لمواقف شاقة لا يخرج منهـا الى بعد عناء ومغامرة • هذه الشخصية عادية وغير عادية فى الوقت نفسـه ، هى عادية على المستوى الجمعى للانسان ، لأن قيمة الانسـان اجمالا ــ وفى ايجاز ــ فى قصة المغامرة فى سبيل كشف المجهول،وهى غير عادية على المستوى الفردى لأننا ألفنا الفرد الذى تتلخص فيه التجربة الانسانية نادرا • وكذلك « السندباد » عادى وغير عادى فى الوقت

نفسه هو الذى ــ بغض النظر عن حكايته القديمة ــ شخصية رمزية أو رمزا • فطبيعة الرمز يجمع فى وقت واحد بين الحقيقى وغير الحقيقى العادى وما فوق العادى (أو غير العادى) •

ويجدر بى أن أنبه الى رأى خاص بى فى هذا المجال فحواه أن شخصية « السندباد » لا تغنينا كثيرا ولا ينبغى أن نعنى البحث حولها، أحقيقة هى أم جاء بها الخيال ليسوغ الحكايات والأحداث التى يلقبها على مسامع الناس عند أوبته ، والتى شاهدها فى الأماكن الكثيرة التى طوف بها ، وانما الذى يهمنا القصة التى جاء بها ، وفيها يخضع المنطق والعقل ، وهذا الحدث يمكن أن يكون واقعا وحقيقة لأنه حدث ويمكن أن يحدث مثله فهو تاريخ وتراث أو غير ذلك مما لا يعتمده العقل ولا المنطق فهو لم يقع ولا يمكن أن يحدث مثله فهو خرافة أو أسطورة أو تاريخ وتراث بولغ فيها حتى جاوزا حد المعقول فاقتربا من الخرافة • هذا ما كنا ننتظره من الشعراء الذين تحدثوا عن السندباد • فالشخصية غير مرادة فى زعمنا وانما ما نقلت من أخبار وقصص ، ولكن وجدناهم يعمدون الى السندباد ويتخذونه رمزا للقلق وعدم الاستقرار والحنين الدائم الى الهدوء والدعة سواء أكانت مكانية أم نفسية خالصة • وهذا سوف نجده عند السياب •

وعلى هذا الأساس ينبغى أن ينظر الى سائر الشخوص الأسطوريين « أو الذين دخلوا عالم الأسطورة على مر الزمن » فكل شخصية من هذه الشخصيات لها تجاربها الخاصة الواقعية أو الممكنة•

ولكنها فى الوقت نفسه تلخص وجها من وجوه التجربة الانسانية الشاملة المعددة • فهذه الشخصيات المحدودة العدد التى ظفرت على سطح التاريخ الانسانى ، ليست الا أدوات عبر بها الانسان على مر

الزمن عن تجربته منذ بدايتها فى حضن العقيدة وفى امتدادها بعد ذلك الى العرف والتقاليد ، عبر بها عن تلك العلاقات التى تربطه بالله والكون وبنفسه ، وعما ضمنته هذه العلاقات من معانى الحياة والموت والخلود والفناء ، والشجاعة والخوف • ويقتضى هذا التصور لهذه الشخصيات الرمزية أن نتوقعها فى السياق الشعرى نفسه وقد حملت عن الشاعر عبء التجربة الشخصية من جهة ، أى عبء تجربته الخاصة المنفردة ، وفى الوقت نفسه قد حملت معها وجهها الشمولى فى التعبير عن التجربة الانسانية العامة أو عن وجه من وجوهها الأساسية ، من جهة أخرى • ينبغى أن تحمل هذه الشخصيات فى السياق الشعرى ملامح الشخصى والعام أو — بعبارة أدق — الفردى والجمعى فاذا فقدت فى السياق الشعرى هذه القدرة فقدت وجودها الرمزى ، وفقدت — نتيجة لذلك — تأثيرها المنشود(١) •

وقد استهوت شخصية « السندباد » بما فيها من قلق وتطلع ، ورفض دائم للواقع ، شعراءنا المعاصرين ••• ففى مخاطرات « السندباد » يبرز معنى الانعتاق من الواقع والتمرد عليه ، والرغبة فى تنفس هواء جديد ، ويكمن روح التطلع والبحث عن المعرفة والتخطى الدائم للمسلمات البيئية ، نفسية وفكرية ، وتلك روح الشاعر العظيم الذى تحفزه الرغبة على الكشف ، واستكناه الوجود ، ويلهبه توق دائم الى تغيير الواقع وتجاوز الممكن والمتاح ، الى ما يجب أن يكون ، فيضرب بتجربته الشعرية ، برؤاه الفنية فى أكباد الحقيقة والمجهول •• انه رحالة أبدى المغامرة •

---

(١) ملامح وحدة القصيدة فى الشعر العربى بين القديم والحديث د• سامى منير ص ٥٩٨ ط أولى ١٩٧٩م — الهيئة المصرية العامة للكتاب — فرع الاسكندرية •

وقد أتيح للشعراء المعاصرين أن يقعوا على هذا الرمز الأسطورى الثرى ، ذلك القناع النفسى المتفق مع النزعة القومية المعاصرة فى تجاوز الواقع العربى سلوكا وفكرا وفنا ... تشوفا الى عوالم أكثر رحابة وصفاء .

ومن الشعراء الذين استهوتهم شخصية « السندباد » صلاح عبد الصبور وخليل حاوى وشاعرنا السياب ، والبياتى .

ومن أكثر الارهاصات لفتا للأنظار فى أدبنا المعاصر لشخصية « السندباد » كتابات الدكتور حسين فوزى ، فقد أعد نفسه سندبادا يجوب الشرق والغرب ، ويجوب فى أعماق التاريخ ، وأصدر مجموعة من الكتب عن سندبادياته ، ورحلاته فى المكان والزمان ، ومن أهم كتبه الرائدة « حديث السندباد القديم » .. وهو محاولة علمية وفنية لعرض المعارف البحرية والمعالم الجغرافية التى حفلت بها قصة السندباد ، والكشف عن مصادرها من مؤلفات العرب فى القرون الوسطى بين القرن التاسع الميلادى والقرن الخامس عشر كما ترد فى كتب المسالك والممالك . وكتب العجائب ، ومذكرات البحريين .... « فاذا كان السندباد قد حدثنا بالطيور التى تزق أولادها بالأفيال ، والحيات التى تبتلع الجواميس ، ودواب البحر تبدو وسط المحيط كالجزائر ، فقد عرفنا بكل هذا فى الكتب العربية ... وبعضه نقله العرب عن «بطليموس» و « ونيارخوس » و « بلينيوس »و«كليستنس» المزعوم(٢) .

والدكتور حسين فوزى يرى « انها من أهم قصص البحار فى

---

(٢) حديث السندباد القديم د. حسين فوزى ص ٣٥٠ طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣م .

آداب العالم »(٣) وأن آداب العالم قد احتضنتها منذ نشر «جالان» ترجمتها الفرنسية فى مطلع القرن الثامن عشر ، وتنشأت عليها أجيال من الشباب وتأثر بها كبار الكتاب الخياليين ... وقد رفعها الناقد « ريتشارد هول » الى مكانة الأوديسية ، كما كانت موضوع دراسة العلماء المستشرقين والجغرافيين »(٤) وما وصل اليه الشعراء بحاستهم الفنية من مزج بين شخصيتى السندباد وأوديسيوس — كان له — فيما يبدو — جذور من الحقيقة فى صلة قصة السندباد بأصول هومرية على نحو ما يقول الدكتور حسين فوزى « هناك تشابه عجيب بين حكاية الغول الأسود فى رحلة السندباد الثالثة ، وبين حادث العملاق الأعور « الكيكلوب » فى الأوديسية .. وليس عجبا أن يكون صاحبها قد سمع بحكاية أوديسيوس »(٥) .

غير أن هذه الشخصية قد انتقلت كنموذج فنى الى عالم الشعر، منذ زمن قريب ، وكان لها من الأبعاد النفسية والفنية فى الشعر المعاصر ما أغرى الكثيرين بالاشارة اليها حينا ، أو الحلول فيها حينا آخر ، حتى لقد غدا « السندباد » من النماذج الرمزية الكبرى ، بخاصة فى شعر « بدر شاكر السياب » حيث أجاد استخدام هذا الرمز استخداما شعريا ناجحا ، واتخذه أداة لافراغ تجربته الشعرية،انه يبقى على المألوف من مغزى هذا الرمز وهو الرحيل والضياع ، ولكنه فى نفس الوقت يحمله مغزى جديدا هو عدم العودة . فاذا علمنا أن الشاعر ذاته عاش منفيا طريدا فى أكثر من سجن معنوى فى حياته أدركنا على الفور موقفه النفسى فى اللاعودة وفقدان الأمل بها ، وهنا يتحد المغزى الشعورى العام للرمز مع المغزى الشعورى الخاص للتجربة الشعرية ، فتتحق سلامة التعبير وقوته .

---

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٦ .
(٤) نفسه ص ٣٦٠ .
(٥) نفسه ص ٣١٤ ، ٣١٧ .

والآن نتناول بعض النماذج :

لقد هجر السياب قريته التى أحبها الى البصرة ، ثم هـاجر من البصرة الى بغداد للتعلم ، وبعدئذ هاجر الى الكويت هربا من الحكومة وبحثا عن المـال الذى سيجنيه لاطعام أسرته ، وكذلك هجر الى لندن وباريس وبيروت وروما وطهران •

كانت هذه الهجرات تحز فى نفسه فتجعله يتطلع دائما الى عراقه الحبيب وتسبح عيناه بالدموع ، وترتجف أطرافه لدى ذكراه •

فبعده عن العراق ، وقلقه فى عدم الاستقرار جعلـه يحن الى الوطن ، الى رفيقـه وجيكور ، والبعـد عن ذويه جعله يشـتاق الى رؤية زوجته وأولاده ، وألمه جعله يحن الى أمه التى هى فى قبرها ، على أنه يشعر بالغربة والابتعاد عن وطنه رغم أنه قريب جدا من وطنه(٦) ، وما الكويت ببعيدة عن العراق • وكم يتمنى أن يسافر على ظهر سفينة عابراً شط العرب الى البصرة • يقول فى قصيدته « غريب على الخليج » :

ليت السفائن لا تقـاضى راكبيها عن سـار
أو ليت أن الأرض كالأفق العريض ، بلا بحار
مازلت أحسب يا نقود ، أعدكن واسـتزيد ،
مازلت أنقض ، يا نقود ، بكن من مدد اغترابى
مازلت أوقـد بالتماعكن نافذتى ويـابى
فى الضفة الأخرى هناك • فحدثينى يا نقـود

---

(٦) بدر شـاكر السـياب والمذاهب الشـعرية الحديث د• محمد التونجى ص ٨٠ ، ٨١ •

متى أعود ؟ متى أعود ؟
أتراه يأزف ، قبل موتى ، ذلك اليوم السعيد

وقد أحس أن بقاءه فى الكويت سيطول فيتحسر لأنه يشتغل بما يكفيه لكفافه ، فكيف يقدر على الادخار :

واحسرتاه .. فلن أعود الى العراق
وهل يعود
من كان تعوزه النقود ، وكيف تدخر النقود
وأنت تأكل اذ تجوع ؟ وأنت تنفق ما يجود
به الكرام ، على الطعام ؟
لتبكين على العراق
فما لديك سوى الدموع
وسوى انتظارك ، دون جدوى ، للرياح وللقلوع !

فالبعد والوحدة والسأم ، خلقوا فى شعره فلسفة فى حب الديار، فاسودت الدنيا فى وجهه بعد أن ترك الوطن والأهل ولم يعد يرى شيئا ذا ضياء :

يا غربة الروح فى دنيا من الحجر
والثلج والقار والفولاذ والصخر
يا غربة الروح ... لا شمس فأأتلق
فيها ولا أفق

والوحيد الغريب يذكر فى وطنه أول ما يذكر بيئة وساكنيه ، وخاصة اذا كانوا ينتظرون أوبته للحاجة المادية ، وكم عركته الآلام عليهم :

ان لى منـــزلا فى العـــراق الحبيب
صـــبيتى فيـــه تملك صـــخرا
آه لـــولاك يا داء ما عفـــت دارى
ما تركت الزهور التى فتحت فى جدارى
والعصافير فى ركن بيتى لهن اختصام
مر يوم ، فشهر ، فشهر ، فعـــام

ويبرر حنينه الى العراق بأنه أجمل بلد رآه ، وليس وحده الذى تجول فى أكثر دول الغرب والشرق ولم يجد خيرا من وطنه ، فقديما تجول الحسن البصرى فلم يجد أفضل من العراق :

ان يكتب الله لى العـــود الى العـــراق
فسوف الثم الثرى ، أوعانق الشـــجر ،
أصيح بالبشر :
ويا أرج الجنة ، يا اخوة ، يا رفاق
الحسن البصرى جاب أرض واق واق
ولنـــدن الحـــديد والصـــخر ،
فما أرى أحسن عيشا فى العـــراق

ويحس بألم الفراق فهو يصرخ وينادى عندما كان فى لندن ، انه واقع وخيال كل أب بعيد عن وطنه وأهله ، وقد ترك أولاده بلا معيل. فيتألم لحديث ابنته « آلاء » عن أبيهـــا البعيد المريض ، وتخنقـــه العبرات وهو يتكلم باسمها وبلغتها :

ويا حديثك عن « آلاء » يلذعهـــا
بعدى فتسأل عن بابا : « أما طابا » ؟

أكاد أسمعها
رغم الخليج المدوى تحت رغـوته
أكاد ألثـم خديهـا وأجمعهـا
فى ساعدى

واستطاع السياب أن يعثر على رمز للامل الهارب ، مما يتـلاءم مع حالته النفسية ـ فى « ارم ذات العماد »(٧) وقد صـدرها بقوله « عند المسلمين » أن شداد ابن عاد بنى جنة لينافس بها جنة الله هى « ارم » وحين أهلك الله ـ تعالى ـ قوم عاد ، اختفت «ارم»وظلت تطوف وهى مستوره فى الأرض لا يراها انسان الا مرة فى كل أربعين عاما ، وسعيد من انفتح له بابها » •

استخدم الشاعر هذه الأسطورة كرمز للجنة المفقودة من خـلال تجربة بحث نقدى قام بها صياد فقير يعيش تجربة البؤس الانسانى •
اعتمد السياب تجربة الصياد العجوز باعتبارها الوقائع المحسوسة:

مقامرا كنت مع الزمان
نقودى الأسماك لا الفضة والفضار
والورق الشباك والوهار(٨)
وكنت ذات ليلـة
كانت السماء فيها صدأ وقار
أصيد فى الرميلة
وفى خورها العميق ، أسمع المحار

---

(٧) ديوان « اقبـال وشناشـيل ابنـة الجلبى ط • دار الطليعـة بيروت ص ١١ •

(٨) أداة لصيد السمك تصنع من أغصان الشجر •

وفى طريق عودته :

لم أدر الا أننى أمالنى السحر
الى جدار قلعة بيضاء من حجر
كأنما الأقمار منذ ألف ألف عام
كانت له الطلاء

يتذكر الصياد الفقير فى رحلته المسائية للبحث عن الرزق،نجمته البعيدة التى تنام فوق سطحها وتسمع الجرار ، وحينما تتجلى له ارم وسورها يقول :

وقفت عندها أدق
يا صدى أراجع
أنت من المقابر الغريبة ؟
أحسن فى الصدى
برودة الردى

وحينما أدركه التعب ورفضت الأسوار أن تستجيب له :

جلست عند بابها كسائل ذليل
جلست أسمع الصدى كأنه العويل
يلهث خلف حائط من حجر ثقيل
كأن بين دقة ودقة يمر ألف عام
وما أجاب العدم الخواء
وحين أوشك الصباح يهمس الضياء
نعست ، نمت ، واستفقت ، مر ألف جيل

كذلك « أرم » وقد دق الجد بابها فلم تفتح له ، وجلس منهزما

عند بابها كسائل ذليل ، وغلبه النعاس ، وحين استيقظ لم تكن هناك ... فهى لا تعرض فى العمر الا مرة واحدة ، وكانت محنته أن نام دون أن يواصل الطرق بلا كلل .. ولكن هذا الجيل من الصغار الذى بنيت بين يديه ، انه الأمل فى أن يستطيع باصراره أن يفتح باب « ارم » عندما تلوح :

وقال جـــدنا ولج فى النشـــيج
ولن أراها بعد،ان عمرى انقضى
وليس يرجـــع الزمان ما مضى
سوف أراها فيكم ، فأنتم الأريج
بعد ذبول زهرتى ، فان رأى ارم
واحدكم ، فليطرق الباب ولا ينم
ارم
فى خاطرى من ذكرها ألم
حلم صباى ضاع ... آه ضاع حين تم
وعمرى انقضى

ان السياب قد « جسد » هذا الأمـل الانسانى فيما عرضه من حكاية أشبه ما تكون بالواقع ... فما الجد العجوز والصبية الملتفون حوله ، وهو ينفث دخان سيجاره ، ويحكى لهم غرائب ما مر فى حياته الطويلة ، مغلفا بما يحيا فى ثقافته من أساطير وما يتصل بنفسه من أحاديث « السندباد » وحب « عبلة » لعنترة .. التى ضمن السياب اشارتين لهما فى حواشى قصة الجد العجوز . وبذلك قد استطاع أن يمنح « ارم » الأسطورة تشخيصا فنيا جعل لها وجودا حيا فى نفوس متلقيـــه .

ولعل قصيدته « رحل النهار » هى التى يظهر فيها « السندباد » حيث يصادفنا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فى كل جزء منها • فيه يتبلور المحور الشعورى للقصيدة ، وبه يرتبط سياق القصيدة اجمالا، وأول ما يكون على نجاح الشاعر فى استخدام هذا الرمز استخداما شعريا أنه لم يتعامل معه من الخارج ، أى لم يقحمه على السياق الشعرى اقحاما ، مكتفيا بأبعاده الذاتية أو بما يكن أن يكون له مغزى لدى الآخرين ، بل أضفى عليه من موقفه الشعورى ومن تجربته الخاصة • وهو فى الوقت نفسه لم يحمل عليه من عنده أكثر مما يطيق أو بما تتسع له دائرته ، بل هو فى كل ما أضفاه على هذا الرمز مازال مرتبطا بمعطياته الشعورية •

وقد تكون بعض هذه المعطيات كامنة فى الرمز غير مكشوفة • والشاعر هو الذى يستطيع — من خلال موقفه الشعورى الخاص — أن يكشفها • ومن ثم حدث التلاحم بين تجربة الشاعر والرمز الذى استخدمه ، فاذا الرمز يعطى التجربة بقدر ما يأخذ منها(٩) •

بدأ الشاعر قصيدته بما يؤكد استمرار غياب « السندباد » :

رحلَ النهار

ها انه انطفأت ذبالته على أفق توهج دون نار
وجلست تنتظرين عودة سندباد من السفار
والبحر يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود

ففى هذا الجزء نجد السندباد الذى نعرفه قد خرج لسفره من سفرائه ، طال أمدها (رحل النهار) ونلتقى فى الجزء ذاته بشخصية ثانوية تسهم فى بناء الصورة على نحو ما من أنحائها ، وهى شخصية

---

(٩) ملامح وحدة القصيدة ص ١٩٨ ، ١٩٩ •

مقربة من الشاعر قد تكون محبوبته أو زوجته التى تعلق الأمل على عودته اليها ، غير أن الشاعر يحمل شخصية السندباد طاقة شعورية هى « النظير » لذات الشاعر ، فيقطع الأمل بعودته تبعا لانقطاع الأمل من عودة الشاعر نفسه الى حياة الاستقرار والطمأنينة :

هو لن يعـــود
أو ما علمت بأن أسرته آلهـــة البحـــار
فى قلعة سوداء فى جز من الدم والمحار
هو لن يعود
رحل النهار
فلترحلى هو لن يعود

انها رحلة مقطوع بعدم رجوعه منها ، هى رحلة الموت..والزمن الذى معنى لن يعود ، والانتظار لم يعد له مبرر أو منه جدوى.هكذا تقول النذر :

الأفق غابات من السحب الثقيلـــة والرعود
الموت من أثمارهن وبعض أرمدة النهـــــار
الخوف من ألوانهن وبعض أرمـــدة النهار
رحل النهـــار

وأوضح أن رمز السندباد هنا ، مقترنا بالزوجة التى تحتـــرق انتظارا لعودة زوجها المغامر ، دون أن تفقد الأمل فى عودته رغم ما تقول به كل الدلائل المـــادية . انما ينفتح على رمز أسطورى آخر هو رمز « أوليس » و « بنيلوب » زوجته ، فبنيلوب ظلت تنقض ما تغزل، والزمن يمضى ، ولكنه لم يفقـــد الأمل فى عودة « أوليس » ومهمـــا

تقدم به السن ، وفقدت زهرتها نضارتها ، فانها علقت حياتها على أوهى خيط من الأمل فى عودته • وهى رغم كل ما ألم بها من ضيق، وتعرضت له فى الوقت نفسه من اغراء ظلت متعلقة بذلك الخيط الواهى ، فماذا حدث هنا لصاحبة السندباد ؟ لقد شاب شعرها الأشقر ، وابتلت رسائل الحب بالدموع حتى أنطمس الكلام فيها والوعود ، وجلست تنتظر مشتتة الخاطر ، وفى رأسها دوار ، تحدث نفسها :

سيعود • لا • غرق السفين من المحيط الى القرار
سيعود • لا • حجرته صارخة العواصف فى اسار
يا سندباد أما تعود
كاد الشباب يزول ، تنطفىء الزنابق فى الخدود
فمتى تعود
أواه ، مد يديك بين القلب عالمه الجديد
بهما ويحطم عالم الدمم والأظافر والسعار
يبنى ولو لهنيهة دنياه
آه متى يعود ؟

ان حيرتها ظاهرة ، وخوفها من زوال شبابها مسيطر علينا ، وقد تستشف أنها بذلك موضع اتهام ، ولكنك قد تستشف كذلك أن السندباد كان هو المسئول •

خصلات شعرك لم يصنها سندباد من الدمار ومهما يكن من تجربة انتظارها فانها مازالت تطمع فى أن تعود يد السندباد لكى تبنيا للقلب عالما جديدا غضا وبريئا ، بعد أن تحطم عالم الدم والاظافر والسعار

وهكذا صنع « أوليس » عندما عاد رشد قومه ، فقد حطم الجشع والسعار الذى أحاط ببنيلوب طوال غيبته ، وأعاد لقلبها نبضه الدافق(١٠) .

ولكن نعود فنتذكر على الفور أن الشاعر قد قطع بأن رحلة السندباد — أو رحلته هو — لا أمل فى العودة منها ، وربما كان فقدانه الأمل راجعا الى مرضه العضال ولكن سببا لذلك يمكن البحث عنه فى الشبهات التى أثارها . وانه ليبدو فى القصيدة كلها وكأنه يريد أن يحمل صاحبته حملا على فقدان الأمل فى عودته والكف عن انتظاره،ومن ثم نجده — يعود بعد أن أسمعنا حديثها لنفسها عن أملها فى عودته لرأب الصدع ، وبدء حياة جديدة — ينهى القصيدة بمقطع أخير من كلامه، يقول :

رحل النهار

والبحر متسع وخاو . لا غناء سوى الهدير

وما يبين سوى شراع رنحته العاصفات ، وما يطير الا فؤادك فوق سطح الماء يخفق فى انتظار :

رحل النهار

فلترحلى ، رحل النهار

فاذا به يعود لتأكيده لعدم جدوى الانتظار ، وضرورة قطع الأمل فى عودته .

ومرة أخرى ينفتح الرمز على رمز آخر يتمثل فى عبارة « البحر

---

(١٠) ملامح وحدة القصيدة ص ٦٠١ وما بعدها .

متسع وخاو » فقريب من هذا كانت عبارة الأمير « قريستان » فى قصة « تريستان وايزولد » المشهورة حيث يطلب الى رفيقه أن ينظر الى البحر لعله يبصر سفينة محبوبته « ايزولد » ولكن رفيقه ينظر فلا يرى شيئا ، ويقول له : « البحر هادىء وخاو » وحيث انه لم يتم بعد ذلك لقاء تريستان بايزولد ، فكذلك الأمر بالنسبة لصاحبه « السندباد » أو صاحبة الشاعر • لم يكن بالسياب حاجة هنا — وقد استخدم هذا الرمز مؤازرا به رمز السندباد — أن يعود ليقول ان ذلك البحر المتسع الخاوى يتراءى فيه شرع رنحته العاصفات ، ولكن شعوريا — فيما يبدو — أن تتوقف القصيدة عند مغزى عبارة « تريستان » الرمزية ، فالرؤية الأولى متمركزة فى السندباد ورحلته وما يملك من سفين وشراع ، فاذا بدا لنا هنا تعارض بين « البحر متسع وخاو » و « ما يبين سوى شراع ورنحته العاصفات » فانه فى الحقيقة تعارض ظاهرى صرف ، أما المغزى فمتحد ، وهو فقدان الأمل فى العودة •

وهكذا نجد رمز السندباد فى هذه القصيدة وقد جمع بين مغزاه الشعورى العام والمغزى الشعرى الخاص الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بتجربة الشاعر الخاصة ، التى أفادت من ذلك المغزى العام بمقدار ما أضافت اليه •

وفى هذا يتمثل التعانق الصادق بين الحقيقى وغير الحقيقى ، وهو من أهم ما يميز الرمز الشعرى ، وقد تمثل فى أن الشاعر قد استطاع أن يشعرنا بأنه انما يعبر عن أشياء واقعية فى مجاله الشعورى فى حين كان يبنى فى الوقت نفسه صورة خيالية لمشاعره •

وبعد •• فقد اتضح أن استخدام الأساطير فى الشعر المعاصر

لاسيما شعر السياب ليست ظواهر فكرية نحتاجها فى بحثنا عن الذات المعاصرة ، وليست مجرد « مضـــمون » للرموز والأساطير القـــديمة نبعثها من جديد للافادة من عبرتها أو دلالتها • انها فى الحقيقـــة ركائز فنية قادرة على استيعاب تجاربنا الحاضرة بما تحمله من ايحاءات وأبعاد نفسية قبل أن تكون أبعادا فكرية ضاربة جذورها فى أعماق التاريخ • انها عنصر أساسى فى بناء الصورة الشعرية بناء فنيا يكشف عن القيم التعبيرية التى تتعارض مع الغموض حينا ومع التقـــريرية والهتاف حينا آخر ، انها المحور الأساسى الذى يجمع المعنى التقليدى والمدلول الحديث فى آن معا •

دكتور / عيد عبد الرحمن قناوى

مدرس الأدب والنقد بالكلية